(١٥)

إنسان الله
معية آدم الرسول وآدم ما قبله وآدم ما بعده

حديث الجمعة

٩ ربيع الآخر ١٣٨٠ هـ - ٣٠ سبتمبر ١٩٦٠ م

أستغفر الله لي ولأهل بيتي، ولأهل هذا البيت، ولأمة محمد ماثلة عندي في هذه البشرية. أستغفر الله لنا ولهم ولسائر العوالم، ما ظهر منها وما بطن. أستغفره وأعوذ به، أعوذ به وأستعينه، أستعينه وأسترحمه، أسترحمه وأستهديه، أستهديه وأستحييه، أستحييه وأوحده، أوحده وأسأله اليقين بقيام وحدانيته فضلا منه وكرما.

إن قيامَ هذا البيت وقيام هذا الجمع، قَلَّ أو كثر، ومهما قَلَّ فهو الكثير، ومهما كثر فهو فيه القليل. إن قيام هذا البيت، وقيام هذا الجمع إنما يقوم على العبودية لله، إنما يقوم على العبودية للحق، إنما يقوم على العبودية للمعروف الموجود، إنما يقوم على العبودية للموجود المطلق، إنما يقوم على العبودية للمشهود الذي هو عين الغيب ووجهه، إنما يقوم على العبودية للغيب الذي هو عين الشهادة وروحها، إنما يقوم على العبودية في قريب معناها، وعلى العبودية في بعيد معناها، إنما يقوم على العبودية في قائم مبناها، وعلى العبودية في باطن معناها، إنما يقوم على العبودية في قريب معناها، وعلى العبودية في بعيد مبناها.

إنا لنطمع أن يكون في قيام هذا البيت تجمع في الله لبناته، بداية قيام لبيت من بيوت الله على هذه الأرض من أرض الله، جديد لقديم على سنن متلاحق من سبق متصاعد، تعريفا عن الله في فطرته وصبغته، من بيوت ترفع يذكر فيها اسم الله به، وبيوت لكلمات لله به توضع لتشفع، من الشجرة الطيبة لآدمية الله في بشرية الله، أصلها ثابت ممتد في الأرض بجذورها، وفروعها ممتدة في السماء بغصونها، تؤتي ثمارها، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.. وما ثمارها بإذن ربها إلا كلمات طيبة، تحمل طيب أصولها وسر أصولها وقيام أصولها، بدايات لكلمات أصولها ببشرى نهايات لنهايات، أصولها حية مرضية، متجددة سرمدية.

عباد الله! أرضيتم أن تكونوا لله عبادا فتكونوا لاسم الله عمادا، وتكونوا لغيب الله شهودا، وعند الناس به أمرا مشهودا، وحقا موجودا. وحوضا مورودا؟

عباد الله! هذا ما جاءكم به دين الله في قديم جنسكم على مزيد فيه لا على تناقص فيه، وعلى كمال به لا على جفوة وغلظة به.

إن أحسن تقويم ما كان على أرضكم إلا طفولتكم، سخرت لها الآباء والأمهات، وما ارتد إلا عليها أسفل سافلين بما تطورتم وبما توارثتم من غفلة في نموكم، وقد تلقى وجودكم كلمات ربه منكم ليرتد إلى طريق كماله، وما زال يتلقاها ليصل إلى أعلى عليين بأرضه من ذاته بقيامه، بمعناه من كمال أرضكم ذاتا واجتماعا.

إن أرضكم هذه ما زالت في رقيها من بداية تكوينها وبدئها من حيث ظاهر بنيان البشرية فيها وتخلصها من ذاتها إلى معناها بذات مآلها.. آدميتها الوليدة على هذه الأرض بعث نشأتها في دوام متكرر. وما زالت في تطورها بالذهاب والإياب تطلب الكمال، وما زالت إلى كمالها في مزيد، وبتطور المعرفة يتضاعف تطورها إلى جديد، فهي بفطرتها لا ينقطع جديدها ولا يتوقف عنها من الحق مزيدها، آدما واحدا بقديم آوادمه، وجديدها ومزيدها من ظلامه ونوره وغفلته ويقظته.

إن التجافي مع القديم - فيما ظهر من فساده - من عزم الأمور. فإذا أدركته النفس أو أدركه القيام، متجددا في قيامه بفساده فقاومه، فهذه هي المجاهدة وهذا هو الرشاد...

فانظروا ماذا فعل الناس من قبلكم مع أئمتهم وهداتهم وحكمائهم من الأئمة والهداة والحكماء في عصرهم. هل رحبوا بهم أم خاصموهم؟ تأملوا هل هذا أمر متجدد بينكم، أو متجدد فيكم أو متجدد أمامكم. هل ترحبون بالجديد من أمر الله، أم ما ورثتم عن آبائكم عليه تعكفون؟ وإذا تابعتم جديدا ففي أمر ملذات أنفسكم وعن بقايا الفضائل عن الآباء تباعدون، وأمام المادة دون روحها تسجدون؟ فإذا ما رأيتم هذا قائما ودبرتم أمركم لإزالته بمجاهدته كانت هذه هي المجاهدة في الله حقيقة تدركون.

أما ما يتجلى به الحق في هذه البشرية بالهداة من أئمة وحكماء وورثة لأنبياء، فإن شهدتموه فاسعوا إليه جادين، وإن افتقدتموه فاجتهدوا في طلبه صادقين، فإنه أمر دائم لا ينقطع، موجود لا يندثر، ظاهر لا يختفي، متجدد لا يتوقف. هكذا قال كل هاد صادق يوم هدى في الشرق أو في الغرب أو في الأوسط من الأرض، يوم كتب له النصر في رسالته على المعاندين أو لأتباعه من المواصلين.

هذا قانون الفطرة، وهذه هي صبغة الله. وما قام هذا الوجود في قيامه على ما هو قائم إلا بصبغته. ومن أحسن من الله صبغة!

إن من يتجلى بهم الله لا يحملون رسالة مجاهدة للناس ولكنهم يحملون رحمة مهداة. ولكن رسالة المجاهدة تقوم من حملة الفقه في التعريف عنهم ومقاومة خصومهم ولو في غير بيئة ظهورهم، وفي الوقوف بجانبهم والالتفاف من حولهم في حال ظهورهم وسفورهم، وإعناتهم من المفسدين لتعطيل عملهم.

إن الله وهو الواسع العليم الذي اتسع وجوده بمكانيته من سر دائرة ذاته اتساعا مطلقا لا نهائيا بحيث لم يبقَ فراغا لغيره، أنتم اليوم فيه والنبيون بأممهم وملكهم فيه، والأولياء بغرفهم وحقائقهم فيه، والأئمة بكراسيهم وكتبهم فيه، والحكماء بعروشهم وعوالمهم فيه. الأولون بأولياتهم فيه، والآخرون بآخرياتهم فيه، والمواصلون بطرقهم وأعلامهم فيه، ليس بعيدا عن الصغير وليس محوطا من الكبير. ففيه - وهو الواسع اللانهائي - يتساوى الكبير والصغير، ويتعادلان في لانهائية وجوده. فإذا قدرنا الكبير فيه - وهو اللانهائي - كان هذا الكبير هباء في لا نهائية وجوده. وما كان الصغير فيه إلا في عين معنى الكبير، فكلهم فيه هباء {قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير}[1] وهو لم يخرج عن قانون قدرته مع محمد إذ يقول له {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا}[2].

إن محمدا وهو يعلِّم الناس، وهو يسعى إلى كسب مزيد من رضاء ربه، إنما علَّم ويعلم الناس بحاله، كما علم ويعلم الناس بمقاله. حمل إلى الناس بصغيره ما أُلقي إليه منه في كبيره، فظهر وما زال يظهر لصغيره علما على كبيره، من الكبير المتعال. فهو قد جاء الناس بهدي - بظلمهم وبعجلتهم - ما أدركوه، وبقيام - بجحودهم - ما عرفوه. جاءهم بسنن ما اعتقدوه، وبسبيل ما اهتدوه، وبنور ما أبصروه، وبماء ما شربوه وبنار ما استوقدوه، وبأبواب ما ولجوها، وبجنان ما طرقوها، وبكتاب ما قرأوه، وبعلم ما أخذوه، وبإنجيل ما قلَّبوه، وبتوراة ما فتحوها.. ولكنهم بظلام أنفسهم ادعوه، وبجهلهم زعموه، وورقا حملوه.. فكانوا كالحمر المستنفرة فرت من الحق قسورة.. {كمثل الحمار يحمل أسفارا}[3]، تفرقوا في الأرض يحملون أوراق أسفارهم من كتبهم ما حملوها، ويحملون أوزارهم ما وضعوها، ويحملون أوزارا مع أوزارهم لأمم أذلوها وبلاد فتحوها ما لله دعوها ولا لله أخضعوها. وبعد قليل فقدوها، والأرض ما فارقوها، وحياة التراب ما أنهوها، وحياة النور ما وصلوها، أثقالا مع أحمالهم يوم يحاسبون أنفسهم بأنفسهم حملوها، فإذا قيل لهم من سلم.. إذا قيل لهم من محمدي.. إذا قيل لهم من آدمي.. إذا قيل لهم من بشرِي يا أيها الناس.. جددوا في الله إيمانكم، وجددوا عن الله عرفانكم، واطلبوا الله في أنفسكم تجدوه، وفي غير أنفسكم لن تعرفوه، وضعوا أصابعهم في آذانهم حذر الموت، ولجوا في عنادهم، وعاشوا في أحقاد آبائهم وأجدادهم.

هذه صبغته، وهذه فطرته، وهذه حكمته في خلقه كلما علا في الناس صوت للحق به. تأملوا فيما جاءكم به رجال الفطرة والحكماء والهداة والمرشدون، وكذلك كان في أمم الأنبياء والمرسلين. إن كل ما جاء البشرية من دين إنما يدل على هذا الحق الواضح المُبَيِّن المبين...

ولكن الناس يجحدون الله معهم.

إن الله يحول بين المرء وقلبه، لأنهم لعقولهم لا يعملون، وهدي نفوسهم يتابعون.

إن الكفر بالله إنما هو كفر العقول بالقلوب. إن الله في قلوبكم وهو ما يجب أن تؤمنوا به بعقولكم، وإن كريم العبودية لعقولكم هو ما يجب أن تدركوه بقيام الربوبية في قلوبكم. إن الذي قال لكم (العقل أصل ديني)[٤] ما كان إلا عقلا كبيرا استيقظ فأدرك ما بفؤاده. ما كَذَبَه فؤاده وما كذَّب فؤاده. رأى ربه فؤاده بعين عقله، وبعين بصيرته، وبعين رشاده. انعكس بصره في بصيرته فرآه ليس كمثله شيء، رآه الإنسان القديم، رآه في أي صورة ما شاء ركبه.. وشاء ففي كل صورة ركبه. رآه نور السموات والأرض. رآه على ما رآه فما رأى إلا معناه. ورأى بعين عقله وقد تفتحت.. وعين بصيرته وقد أبصرت.. رأى أنه في الله، وأنه على ما رأى من عظمته إنما هو قطرة في بحر من الحق الذي به يؤمن وله ينشد ولمرضاته يعمل ولمزيد رفده يطلب. رآه عبدا لله، السموات والأرض داره. رآه عضدا لله، للسموات والأرض من داره يوسع وينشئ لجديده على مثال مما هو ومما له في قديمه، فعرف نفسه من ربه في مستديمه، أنشأ وينشئ سموات وأراضين، وسموات وأراضين. أليس هو عبد لرب هو رب العالمين؟؟ فقال مقالته (إن الزمان قد استدار على هيئته كيوم خلق الله السموات والأرض)[٥].

الناس بين يديه وأمامه عوالم في نشأتها. الناس بين يديه وأمامه كلمات لله في طلعتها. الناس فوقه كلمات تمت لله. والناس دونه كلمات في طريقها للتمام، وهو معهم وبينهم ليس إلا جماع كلمات لله في نفسه ينشد بينهم ربه لنفسه. ينشد عبوديته. ينشد رفيقا أعلى ليعرف عنه، وليعرف عن الملأ الأعلى وما فوقه، وعن الملأ الأدنى وما دونه، ليعرف مما عرف فيقول وقد عرف ما قال (إن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه)[٦] ، وهم إذ يطلبونه كما تطلبونه لم يخرجهم الطلب من وصفهم، من أنهم كلمات لله وأرباب لأكوان وعوالم، وهم ملاك لدور على مثال من داره، يرى فيهم ويشهد أن الرب يبحث عن ربه ليكون عبدا لله، كما يبحث العبد في غفلته عن عبد له ليكون ربا للناس. عرف الأرباب عبادا صحت في الله عبوديتهم، ورأى العبيد أربابا لم تصح لله عبوديتهم فقال ما قال (إن الله يبحث عن عبده كما يبحث العبد عن ربه)[٧].

بخع نفسه على آثار الناس علهم يستقيمون على ما استقام هو عليه، فيطلبون صراطه المستقيم ويدخلون في دينه القيم القويم، ولا يتفرقون عن الصراط المستقيم فتتفرق بهم السبل، من وضعهم بتحريفهم لسبيله عن موضعها فيتفرقون عن صراط الله.

يبحث هو في قومه عمن يؤمن بربه، يبحث عمن يطلب العبودية لله ليرى فيه هو وجه دوام الله. ولا يقوم في هذا إلا من شهده وجها لربه في معناه، يفتقده بين قومه، ويعمل على طلبه، ويسير في الناس حثيثا باخعا نفسه على آثارهم لعله يجد فيهم من يدخل على الله برضائه، بطلبه، بإرادته، باختياره. يفتقده ويتألم لفقده فيقول مقالته (واعجبي من أناس يجرون إلى الجنة بالسلاسل)[٨]

إذ يعمل على أن يأخذهم بيده إلى طريق الله رغم أنوفهم، لعلهم إذا أُذيقوا الجمال رغم أنوفهم ثم أطلقهم مع أنفسهم بعد أن يتألفهم برفده وعطائه يفيئون إلى أنفسهم فيدخلون عليه مدخل الرضاء، فإذا بهم إذا ما أطلق لهم العنان، عادوا إلى ما كانوا عليه في جاهليتهم، عادوا لأنفسهم بأنفسهم في أنفسهم - إلا من رحم ربه - فيعبر عن ذلك بمقالته (الناس معادن خِيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام)[٩]، وحاله يقول ها أنا قد شددتهم فما ثبت إلا القليل من خيرهم في معدنه في جاهليته، ولو تركته في فطرته لانتهى يوما بها إلى ما صار إليه بعد أن عجلتها فشددته، ثم يعلن (لا يدخل الجنة أحدكم بعمله.. حتى أنا إن لم يتغمدني الله برحمته)[١٠].

أما من فسد معدنه فما صلح بجذبي له، ولا برفدي إليه، وكان عبئا عليّ وعبئا على جماعتي. فلا تكرهوا الناس حتى يكونوا مسلمين، لا إكراه في الدين وقد تبين الرشد من الغيّ. وما كتب عليكم القتال إلا لحماية حرية الرسالة وبلاغها.

هذا هو عبد الله ورسوله إلى الناس. بعثه الله في الناس وأمره أن يمشي في الناس بنوره، وأن يمتد في الناس بأمره، وأن يقوم في الناس برُوحه، فيُسجد الناس لرب الناس فيشهده رب الناس فيشهد الناس رب الناس. هل فعل الناس؟ هل تعرض الناس؟ هل تقبل الناس؟ هل أدرك الناس؟ قام هو فيما أمر، وحرص على الحق فيما به أمر، فتابعه ما ندر، وتابع الناس من به وبدينه غدر.

إن عشرات القرون تتابعت وتتابع والناس هم الناس على معادنهم. لا مهتدي إلا من هدى الله. ولا مستيقظ إلا من أيقظ الله. وما استيقظ مستيقظ إلا بالله فيه. وما تنبه متنبه إلا بالله فيه، {فذكر إن نفعت الذكرى، سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى}[١١]...

إن تذكّر على ما أمر رسول الله وقد تذكرت، وعلى ما تتابع به رسول الله وقد تابعت، علَّ الذكرى تنفع المؤمنين، علَّ الذكرى توقظ الغافلين، علَّ الذكرى تحيي موات القلوب، علَّ الله يأخذ بيد

المسترشدين، علَّ الله يأخذ بقلوب المتذكرين. فإن فعل الله بك ذلك فخيره، وإن فاتك ذلك فيمن يفوتك فيه فقضاؤه وأمره. وما لحقك من الدنيا فيه ضير.. {إن إلى ربك الرجعى}[١٢].. {وإلى الله ترجع الأمور}[١٣].

اللهم كن لنا على ما أنت لا على ما نحن. اللهم فزدنا من رحمتك وإن كانت بنا لاحقة ولنا غامرة فرحمتك لا نهاية لها. اللهم عَبِّدنا لك على ما أنت لا على ما نحن. وإن كانت عبوديتك علينا مفاضة، ولكن العبودية فيك لا ينتهي مرتقاها، ولا يتوقف معناها ومبناها، فاللهم فيها فزدنا. واللهم بها فقربنا. اللهم تولَ أمورنا على ما أنت لا على ما نحن، فإننا ما فعلنا إن أحكمنا أو ضللنا، فإرادتك مفاضة في إرادتنا، وإرادتك هي الأحكم والأرحم والأعلم. اللهم فأفض علينا من إرادتك برحمتك، وأفض علينا مزيدا من حكمتك. اللهم أدخلنا السلم والسلام فيك على ما أنت لا على ما نحن، فإنا مهما سالمنا ومهما سلمنا ومهما اتسعنا فقبلنا فسلام منك مفاض علينا وما زال في النفس بقية. اللهم أحينا على ما أنت لا على ما نحن، فأنت الحي القيوم - على ما أنت - لا حد لحياتك على ما تعاليت ودانيت وتنزهت وعظمت وكبرت. وما وصفناك لنا إلا بما علينا به أفضت وفينا أقمت. وأنت على ما أنت لا وصف لك، ولا إحاطة بك. فإن كنا منك في قيام فنحن نطمع في مزيد برحمتك منك وبحكمتك إليك. اللهم اغفر لنا وارحمنا وولِ أمورنا خيارنا، ولا تولِ أمورنا شرارنا، وتولنا بحكمتك ورحمتك وهديك وفضلك، حكاما ومحكومين، غافلين ومستيقظين، مستنيرين ومظلمين، روادا ومرودين. وأقمنا برحمتك يا مولانا فأنت أرحم الراحمين.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة المائدة - ١٧

٢ سورة الإسراء - ٨٦

٣ سورة الجمعة - ٥

٤ عن علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سنته فقال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة. ا المحدث: العراقي. وصفه أنه موضوع، وذكره الغزالي في الإحياء، والقاضي عياض في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ومعظم المتصوفة.

٥ حديث شريف: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض." أخرجه البخاري ومسلم، وأبو داود.

٦ حديث شريف ذكره الشعراني في "لطائف المنن" مشيرًا إلى أن الحكيم الترمذي رواه في نوادر الأصول، كما جاء في الفتوحات المكية لابن عربي، وكذلك تفسيرات بعض الصوفية للقرآن الكريم بنص: "إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم".

٧ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٨ حديث شريف: "عَجِب اللَّه من قوم يدخلون الجنة في السلاسل." صحيح البخاري. كما جاء بلفظ "عجبتُ لأقوامٍ يُقادونَ إلى الجنةِ في السلاسلِ وهم كارهونَ." أخرجه ابن الأعرابي في معجمه، وأبو نعيم في حلية الأولياء.

٩ من حديث شريف: "تَجِدُونَ النَّاسَ مَعادِنَ، فَخِيارُهُمْ في الجاهِلِيَّةِ خِيارُهُمْ في الإسْلامِ إذا فقِهُوا. أخرجه البخاري ومسلم. صحيح ابن حبان.

١٠ حديث شريف رواه البخاري ومسلم: "سددوا وقاربوا وابشروا فإنه لن يُدخل الجنة أحدكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته".

١١ سورة الأعلى - ٩:١١

١٢ سورة العلق - ٨

١٣ سورة آل عمران - ١٠٩